من التاريخ الإسلامي :

قضـــــية سمرقند

للأستاذ على الطنطاوى

(تتمة ما نشر فى العدد الماضي)

مضى السمرقندى نحو دار الخليفة يتعثر فى مشيته ، يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، تتقد نار الحماسة فى نفسه فيخطو ، ثم تعصف بها رياح الشك فيقف ، وكان يطربه الخيال إلى ملوك بلده ، فيتصور تلك الحجب على القصور ، وأولئك الحجاب على الأبواب ، والسيوف المصلتة والرماح المشرعة ، ثم يبصر هذه الدار ... وهذا الذى قالوا إنه أمير المؤمنين ، فيزداد به الشك ... إنه ليعرف السلطان الذى يحكم بالبطش ، والرعية التى تطيع بالخوف ، أما سلطان العدل وطاعة الحب ، فشيء لم يعرفه فى بلده !

واستقر فى نفسه أن الرجل يسخر به ، فمضى وراءه حتى لحقه وقال له :

— ناشدتك الله أيها الرجل ، هل هـذه الدار هى دار أمير المؤمنين ؟

— قال : نعم والله إنها لهى داره ... هذه دار الرجل الذى أورثته سيوف قومه تيجان الملوك الأربعة : كسرى وقيصر وفرعون وخاقان ، فكانت هامته أرفع من أن يبلغها تاج منها ، فما سمت إليها إلا (العمامة) تاج العرب ... هذه دار الرجل الذى جبيت إليه ثمرات الأرض ، فكال الذهب كيلا ، وأعطاه لمستحقه باليدين ، ومنح الفقراء الجوهر ، وقسم فى المحتاجين الدرر ، وبقى هو وأسرته بغير شيء ... لأن نفسه أكبر من أن يملأها كل ما فى الدنيا من ذهب وجوهر ، إنها أكبر من الدنيا ، فلذلك حقرتها وطمحت إلى ما هو أعظم منها : إلى الجنة ! !

وما بجر الحياة ومناعمها ليأوى إلى غار فى جبـل فيعتزل الناس ، أو إلى مسجد فيناجى الله ، إذن لزاد العباد واحداً ، ولـما كان فى ذلك حديث يروى ، ولا عجب يؤثر ، ولكنه زهد فى الدنيا وهو رجل الدنيا وواحدها ، وإليه أمرها ، وبيده بعد القدر صلاحها وفسادها ، فهو فى اللجة ولا يبتل ، وهو (فى اللهب ولا يحترق[1]) ، هو زاهد ولكن فى رأسه عقل حكيم ، وفى صدره قلب بطل ، وفى فيه لسان أديب ، فهو يدير بعقله هذا الملك الواسع ، بقضائه وماليته وداخليته وخارجيته ، وسلمه وحربه ، وهو القائد وهو المفتى وهو المعلم ... أداره أحسن إدارة وأقومها ، فاستقر الأمن ، وتامت الثورات ، وقعد القائمون بالمعارضـة ، وسكت الناقمون على بنى أمية ، وتصافى الشيعى والخارجى ، والمصرى واليمانى ، والأسود والأحمر[2] ، واصطحب فى البرية الذئب والحمل[3] ... وهو يواجه بقلبه أحداث الدهر ، فترتد عنه الأحداث ارتداد الموج عن صخر الشـاطئ ، وهو يصوغ ببيانه الحكمة العليا أدباً خالداً ...

سمع غداة بويع بالخلافة مكرهاً ، هدة ارتجت منها الأرض ، وكان منصرفاً من دفن أمير المؤمنين سليمان فقال : ما هـذا ؟ قالوا : مراكب الخلافة قربت إليك لتركبها ، بالسروج المحلاة بالذهب ، المرصعة بالجوهر ، فقال : مالى ومالها ؟ نحوها عنى وقربوا لى بغلتى ، وأمر بها أن تباع ويدخل ثمنها بيت مال المسلمين ، فقربت إليه بغلته فركبها ، وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة ، فقـال له : تنحّ عنى ، مالى ومالك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ومشى بين الناس ، راكبا على بغلته ، بلا موكب ولا حربة ولا راية ولا طبل . الرجـل الذى يحكم الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز ونجداً واليمن وسورية وفلسطين والأردن ولبنان والعراق والعجم وأرمينية والأفغان وبخارى والسند وسمرقند ... مشى ومشى الناس بين يديه حتى دخل المسجد ، فقام على المنبر ، فقال :

أيها الناس : إنى قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأى كان منى فيه ، ولا طلب له ، ولا مشورة من المسلمين ، وانى قد خلعت بيعتى من أعناقكم ، فاختاروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة : إنا اخترناك ورضينا بك .

---

(١) هذه الجملة من مأثورات الرافعي رحمه الله .

(٢) كناية عن العرب والعجم (من كناياتهم) .

(٣) أنظر سيرة عمر لابن الجوزي وسيرته لابن عبد الحكم .

ومشى إلى الخضراء ، وما الخضراء ؟ جنة الأرض التى حشر إليها كل ما فى الأرض مَن كنوز وطُرَف ، القصر الذى أزرت عظمته بالخورنق والسدير وغمدان والايوان ، فأمر بستورها فأزلت ، وبيسطها ونمارقها فطويت ، وبطرفها وكنوزها فحملت ، وأمر ببيع ذلك كله ووضع ثمنه فى بيت المال ، وأمّ داره هذه .

فقال الناس : إنه رجل صالح ، ولكن الملك له أهل . إن الملك لا يقيمه إلا قوىّ أمين ابن دنيا ...

ظنوه أمّ داره يقبع فيها يسبّح ويهلل ، فإذا به يُحدّ قلمه ويُعدّ قراطيسه ويكتب من فوره بيده ، إلى أقاليم الأرض ، منشوراً فيه الدستور الذى لا يقوم إلا به الملك ، وينفذ الكتب من ساعته . فعلموا أن خليفتهم زاهد فى الدنيا ، ولكنه ابنها وأبوها ...

فعل ذلك كله من الصباح إلى الضحى ، ثم ذهب يقيل ، فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أى بنىّ أقيل . قال : تقيل ولا تردّ المظالم ؟ قال : أى بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر عمك سليمان ، وإنى إذا صليت الظهر رددت المظالم . قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟ فترك مقيله ، وخرج فبعث مناديه ينادى : ألا من كانت له مظلمة فليرفعها ، فانى منصفه من نفسى ومن آل بيتى ومن الناس أجمعين ... ولقد والله فعل أكثر مما قال !

نعم يا أيها الغريب ، هذه دار أمير المؤمنين ، فلا يغررك صغرها وضيقها ، وعطل أبوابها من الزخرف وجدرانها ، وأنه لا حاجب عليها ولا جند ببابها ، فان هذه الدار أكرم من كل قصر حملته على ظهرها هذه الأرض[1] ، فامش إليها ولا تخف !

***

فعاد السمرقندى ، فلما دنا من الدار سمع ضجة ورأى ولدين قد شجّ أحدهما الآخر شجة منكرة ، ورأى الخليفة يخرج بنفسه فيأخذ الولدين ؛ فيراه ، فيسأله ، فيقول : إنى متظلم يا أمير المؤمنين فيقول له : مكانك حتى أعود إليك . ويدخل بالغلامين ويسمع السمرقندى صوت امرأة تصرخ ، « ابنى » فيعلم أنها أم الولد المشجوج ، وتدخل الدار مُرَيْثة . فترى الولد الآخر ، فتقول ابنى.

(١) الدار هى المدرسة السيماطية اليوم وقد قرروا هدمها !!

ويسمع القصة فيعلم أن ابن أمير المؤمنين قد خرج يلعب مع الغلمان فشجه ابن هذه المرأة . وتقول المرأة : ارحموه ، إنه يتيم فقير . ويرق قلب السمرقندى ويشفق على هذه المرأة أن تضرب عنق ابنها أمامها ، وهو طفل لا ذنب له ولا يسأل عن فعلته ، وإذا بأمير المؤمنين يقول لها : أما له من عطاء ؟ فتقول : لا . فيقول : سنكتبه فى الذرية

وتخرج المرأة شاكرة داعية ، ويسمع السمرقندى فاطمة بنت عبد الملك تقول مغضبة : فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى فيقول الخليفة : إنكم أفزعتموه[1]

وخرج الخليفة فدعاه ، فسأله عن حاله ، فشكا إليه قتيبة ، وأنه دخل سمرقند غدراً من غير دعوة إلى الإسلام ولا مناذنة ولا إعلان

فقال الخليفة : والله ما أمرنا نبينا بالظلم ولا أجازه لنا ، وأن الله أوجب علينا العدل فى المسلمين وغير المسلمين ، يا غلام ... قلماً وقرطاساً !

فجاءه الغلام بورقة قدر إصبعين ، فكتب عليها أسطراً وختمها وقال له : خذها إلى عامل البلد !

***

ورجع يطوى هذه الشقة مرة ثانية ، وكلما وصل إلى بلد دخل المسجد فوقف فى الصف كتفه إلى كتف أخ له فى الإسلام ، ووجهته وجهته ، وفى قلبه إيمانه ، وعلى لسانه تسبيحاته وتكبيراته .. أحس أنه عضو فى هذه الجمعية الكبرى ، وأدرك عظمة هذا الدين وحلاوته ، إذ يؤم المصلين واحد منهم فلا قساوسة ولا كهان ، ويصلون فى كل أرض فلا معابد ولا تماثيل ، ويقفون جميعاً صفاً واحداً فلا كبير ولا صغير ، ولا مأمور ولا أمير ، وشعر بعظم هذه الدائرة التى تطيف من حول الكعبة تمر على السهل والحزن ، والعامر والغامر ، والمدينة والقرية ، يقوم فيها عباد الله ، هم رهبان فى الليل وجنّ فى النهار ، خاشعة قلوبهم وأبصارهم وجوارحهم ، يقفون أمام رب العالمين ، فلا يبالون الدنيا كلها بلذائذها وآلامها وخيرها وشرها !

(١) سيرة عمر لابن الجوزى طبع محب الدين الخطيب سنة ١٣٣١ ص ١٧٦ .

ولم تثقل عليه هذه المرة سمة دنيا الإسلام لأنها دنياه ، ولم يجد لهذه السفرة مشقة ولا تعباً ، لأنه كان كلما انقضت الصلاة وجد فى المسجد (فى كل بلد يمر عليه) من يسأله عن حاله ، فإذا علم أنه غريب أنزله داره ، وقدم له قراه ، ومنحه عونه ، فكان يقابل بين مجيئه كافراً وبين عودته مسلماً ، وكيف كان يشعر بطول الشقة ، وبعد الطريق ، وألم الغربة ، فصار يتقلب فى النعيم ، ويحمل على أكف الإخوان ، فيدرك سر المسجد وجمال هذا الدين!

* * *

ووصل إلى المعبد ، ولكنها لم ترعه هذه المرة تماثيله ولا مصابيحه ، ولم يمتلئ قلبه فرقاً من أسراره وخفاياه ، فقد أضاء له الإسلام ظلمة الحياة فرأى حقائقها من أوهامها ، وعلم أن هذه الأصنام التى نحتوها بأيديهم وسموها آلهة ، لا تنفع ولا تضر ، ولا تمنع عن نفسها ضربة الفأس ولا لهب النار ، ولكنه كتم إسلامه ، وقرع الباب قرعة السر ، ففتح له ورآه الكهنة بعد أن حسبوا أنهم لن يروه أبداً ، ووصف لهم ما رأى ، فكادت أعينهم تخرج من حناجرهم دهشة ... وأيقنوا أن قد جاءهم الفرج ، وأمروه فحمل الكتاب مختوماً إلى العامل ، فإذا فيه أمر الخليفة بأن ينصب قاض يحتكم إليه كهنة سمرقند وقتيبة ، فما قضى به نفذ قضاؤه !

وأطاع العامل ونصب لهم قاضياً جميع بن حاضر الباجى ، وعين موعد المحاكمة

* * *

ولما عاد فأخبر الكاهن الأكبر ، أظلم وجهه بعد إشراقه ، كما تربدُّ فى سماء النهار الصحو السحب السود ، وخبا ضياء الأمل الذى بدا له فحسبه فجراً صادقاً فإذا هو برق خلب .. وأيقن أن هذه المحاكمة فصل جديد من كتاب غدر المسلمين ...

... وجاء اليوم الموعود ، واحتشد أهل سمرقند من كل قاص منها ودان ، رجاء الكهنة الذين كانوا محتجبين لا يراهم من أحد ، وجاء القائد الفاتح قتيبة ، وكانت المحكمة فى المسجد فقعدوا ينتظرون القاضى

ولم يكن الكهنة يأملون فى شىء ... وفيم يأملون ؟ فى أن يحكم لهم القاضى المسلم بطرد المسلمين من سمرقند ؟ يحكم لهم هم المتلوين على أمرهم ، المخالفين للقاضى فى دينه ، الذين لم يبق لهم حول ولا طول ؟ وعلى من يحكم ؟ على القائد المظفر الفاتح الذى لم يطأ أرض المشرق قائد أعظم منه ، ولا أكثر ظفراً ، ولا أعظم فتحاً ، اسكندر العرب : قتيبة ؟

كانت القلوب تخفق ارتقاباً لأعجب محاكمة سمعت بها أذنا التاريخ ، وكانت الأبصار شاخصة إلى باب المسجد الذى يدخل منه القاضى الفرد الذى وضعت فى عنقه أعظم أمانة وضعت فى عنق قاض ، والذى ألقى بين حجرى الرحى ، فيها هنا مصلحة أمته ، وسيادة دولته ، والبلد العظيم الذى خفقت فوقه راية الإسلام وامتلكه أهله . وهناك الحق والشرف . وإنها لمزلة أقدام القضاة وإنها لمحنة الضمائر ...

وكان صاحبنا السمرقندى يقرأ الشك والارتياب فى وجوه أهل بلده وفى أوجه الكهنة ، كما يقرأ المرء فى صحيفة منشورة أمامه . أما هو ، وأما المسلمون فلم يكونوا يشكون ، ولم تكن تداخلهم ريبة فى أن الحق والشرف فوق مصلحة الوطن ، وما الوطن ؟ إن وطن المسلم دينه فحيثما صاح المؤذن : الله أكبر ، فثمة وطنه ... وأن جهاده للحق ، فإن جاء الحق زهق معه كل باطل ولو كان فيه نفع الأمة ، وكان فيه الغنم الأكبر .

ونظروا فإذا رجل له هيئة الأعراب ، هزيل ضئيل الجسم شاحب اللون ، قد لاث على رأسه عمامة له ، ووراءه غلام ، فجاء حتى قعد على الأرض محتبياً ، وقام غلامه على رأسه . أهذا هو الرجل الذى أتى ليحكم على قتيبة العظيم وعلى أميره وعلى مصلحة دولته ؟ أهذا هو قاضى المسلمين ؟ وانطفأت آخر شماعة من الأمل فى نفوس الكهنة . ونادى الغلام ، باسم قتيبة بن مسلم ، هكذا بلا إمارة ولا لقب ، فجاء حتى جلس بين يديه ، ونادى باسم كبير الكهنة فأجلسه إلى جانبه .

وابتدأت المحاكمة ...

***

وتكلم القاضى فإذا صوته يخرج خافتا ضعيفا فقال للكاهن :

— ما تقول ؟

— قال : إن القائد المبجل قتيبة بن مسلم قد دخل بلدنا غدراً من غير منابذة ولا دعوة إلى الإسلام :

— قال القاضى لقتيبة : ما تقول ؟

— قال : أصلح الله القاضى ، إن الحرب خدعة ، وهذا بلد

عظيم قد أنقذه الله بنا من الكفر ، وأورثه المسلمين .

— قال : أدعوت أهله إلى الإسلام ، ثم إلى الجزية ، ثم إلى القتال ؟

— قال : لا .

— قال : إنك قد أقررت ، وأن الله ما نصر هذه الأمة إلا باتباع الدين واجتناب الغدر . وإنا والله ما خرجنا من بيوتنا إلا جهادا فى سبيل الله . ما خرجنا لنملك الأرض ولا لنعلو فيها بغير الحق . حكمت بأن يخرج المسلمون من البلد ، ويردوه إلى أهله ، ثم يدعوهم وينابذوهم ويعلنوا الحرب عليهم[1] .

ورأى الكهنة وأهل سمرقند وسمعوا ، ولكنهم كذبوا عيونهم وآذانهم وظنوا أنهم فى حلم ، ولبثوا شاخصين ، حتى أن أكثرهم لم يلحظ أن المحاكمة قد انتهت وأن القاضى والقائد قد انصرفا ، وجعل صاحبنا السمرقندى المسلم ينظر فى وجه الكاهن الأكبر ، فيحس أن نور الحق قد أشرق على قلبه الذى رققته العزلة والتأمل ، وكان الكاهن ينظر إلى عالمه الذى طالما أحبه وآثره فيراه عالما ضيقا مقفراً ، وينظر إلى دنيا الإسلام فإذا هى خصبة واسعة مزهرة بالخير والعدل والجمال ، وما عالمه ؟ فجوة معتمة وسط الصخر الأصم لا يبلغها شعاع الشمس ولا ضياء القمر ولا زهر الربيع ولا جمال المجد ولا جلال الإيمان ...

وسطع النور فى قلبه فرأى أن ديانته كهذا المعبد ، فأين هذا المعبد من معبد الإسلام ، وهو الأرض الطهور التى تمتد حتى تصل إلى بلاد ما سمع بها ... أين ضيقه من سعتها ، أين ظلمته من نورها ، أين سقفه الواطى من سمائها العالية ... ؟ إنه ألحد فى دينه وخرج من المعبد وقد حرم عليه الخروج منه فلن يعود إليه أبداً . أيعود الجنين إلى بطن أمه بعدما رأى بياض النهار ورحب الكون ؟ أيعبد مرة ثانية تلك الآلهة ذوات الوجه البشع المخيف بعد ما عرف رب الأرباب وخالق كل شىء ...

لا . لقد ماتت ديانة المعبد ومرت أيامها ، فهل لما مر مآب ، هل يعود أمس الغابر ؟

وإنه لفى تفكيره ، وإذا الجو يموج بصليل الأبواق وبرتجف من أرعاد الطبول ، ونظر فإذا الرايات تلوح على حواشى الأفق القريب فسأل : ما هذا ؟ قالوا : لقد نفذ الحكم وانسحب الجيش .

هذا الجيش الذى لم يقف فى وجهه شىء من مدينة يثرب إلى سمرقند ، والذى اكتسح جيوش كسرى وقيصر وخاقان ردته كلمة من شيخ هزيل خافت الصوت ، ليس معه إلا غلام بعد محاكمة لم تستمر إلا دقائق ، ولكنه سينذر وسيعود إلى القتال ، أفتقوى سمرقند على ما عجزت عنه الممالك كلها ؟ أترد صخور هذا المعبد سيل الحق الدافق ، وتأكل ظلمته نور الإسلام ؟

لا . لقد قضى الله أن يمحو الفجر سدفة الليل . لقد أطل على العالم يوم جديد ، فلن تتوارى من نور هذا اليوم فى ظلمة المعبد .

وأقبل يسأل أصحابه : ماذا تقولون ؟

فيقول السمرقندى المسلم : أما أنا فلقد شهدت أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فيقول الكاهن : وأنا أشهد .

وتتزلزل سمرقند بالتكبير ... ويعود الجيش المسلم إلى البلد المسلم ، لم يبق حاكم ولا محكوم ، صار الجميع إخواناً فى الله !

على الطنطاوى

(١) كذلك ، لا كما صنعت لجنة التحقيق التى اختاروا رجالها من أكابر قضاة انكلترا وأميركا ، وائتمنوها على شرف القضاء الكونى الذى كان الجهلة منا يضربون بعدله الأمثال ، وبثوها تدور البلاد ، تسأل كل رائح وغاد ، هل فلسطين حق لأصحابها الذين يسكنونها ، أم هى حق لجماعة اللصوص الذين جاؤوا يسرقون البيوت من أصحابها ، فدارت حتى دير بها ، وصعدت إلى السماء ونزلت إلى الأرض ، وبحثت وتقبت فظهر لها أن الحق مع اللص ، فحكمت بطرد صاحب الدار منها ليدخلها اللص ويقيم فيها !

الأستاذ سير قطب يقدم كتابه الجديد:

كتب وشخصيات

يطلب من دار الرسالة ومن المكاتب الشهيرة

وثمنه ٢٥ عدا أجرة البريد